الروحانية

محمد حمد عبدالله الصوياني

العبيكان
Obeikan

ح شركة العبيكان للتعليم، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني، محمد حمد عبدالله

الروحانية. / محمد حمد عبدالله الصوياني - ط١

- الرياض، ١٤٣٩هـ

٦٨ ص؛ ١٤ × ٢١ سم.

ردمك: ٣ - ١٦٣ - ٥٠٩ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- الفقه الاسلامي أ. العنوان.

ديوي ٣٥٠ ١٤٣٩ /٢٧٠١

obeikanpub obeikan.reader

للحصول على كتبنا الورقية

نون noon

وادي wadi

للحصول على كتبنا الصوتية

Kitab Sawti
www.kitabsawti.com

دار ضاد للنشر الإلكتروني
WWW.DHAD.SA

للحصول على كتبنا الإلكترونية

أجهزة amazon kindle

Google Play

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م

نشر وتوزيع العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - الرياض

طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦ + فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ١١ ٩٦٦+

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

www.obeikanretail.com

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى إخوتنا الذين اجتمعوا في
غروزني؛ لإقصائنا.

الروحانية

تميمي عذب المشاعر، تلمع عيناه وهما يتمليان حبيبهما محمدًا ﷺ يشعر بكلماته تغشى شغاف قلبه حتى تغيبه عما حوله، فإذا بالدنيا بأسرها تتلاشى من المشهد، وإذا به في عالم غير العالم؛ عالم يصمت لجلاله كل شيء.

كل شيء إلا الدموع.

شعور لا يوصف، شعور يُقل هذا التميمي، ويُظله حتى وهو في طريقه إلى بيته، ولما احتضنته جدران ذلك البيت الحميم استقبلته زوجته وأطفاله، فبدأ يلاطفهم، ويلاطفونه، ويلاعبهم، ويلاعبونه.

ظل حنظلة التميمي يتقلب في دقائق سعادة ومرح وانشغال امتدت حتى خلا بنفسه، حينها انتفضت روحه كالمفجوعة، تبحث كعاشق عن تلك السماوات التي كانت ترفرف فيها قبل قليل مع نبيه ﷺ أين هي؟ أما من سبيل إلى استعادتها؟

أطرق هائمًا، فبدا له أن براءة الأطفال ولطف الحبيبة ذهبت بأنوار تلك العوالم.

شعر بأجنحة قلبه تخذله، تثقله، تهوي به، فيخر من تلك السماوات النورانية نحو محيطات مظلمة؛ شعور جعل قلبه يرتجف خوفًا من تلك الظلمة.

تساءل حزنه: ترى، هل التعاطي مع أشياء العالم الجميلة، وحاجات الجسد ويوميات الحياة يمحو الإيمان؟ هل التغيرات الشعورية أحد مؤشرات النفاق؟

تحير: كيف يمكن الاحتفاظ بلحظات الذروة تلك؟ كيف يمكن التحليق في أنوارها أطول وقت ممكن؟

حيرة عصفت بقلبه، أقلقته حتى أخرجته من بيته، ولما خرج سلك طريقًا قد يحرره من هذه الحيرة، قد يزيح هذه الحجب التي تحول بينه وبين تلك الروحانية، وفجأة يلمح حنظلة ذروة الإيمان، يلمح الصديق الأكبر، فيبوح التميمي بمعاناته، ويبث حزنه على التيمي العظيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذرفها حنظلة كالدموع بين يدي أبي بكر الصديق، الذي حياه، وقال له: «كيف أنت يا حنظلة؟».

فزفر التميمي زفرة حرى كلها بثٌّ وحيرة، وقال: «نافق حنظلة.

قال أبو بكر: سبحان الله ما تقول؟!

قال التميمي: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرًا».

أراد الصديق التخفيف من حزن أخيه، فقال: «فوالله إنا لنلقى مثل هذا».

لم يكتفِ الاثنان بالنجوى، ولا ببثِّ الهموم وتقاسم الشكوى، ففي المدينة بوابة بين السماء والأرض، في المدينة أجمل شرفة تطل على عوالم الروحانية المهيبة، في المدينة روح رفَّت بين الملائكة، وسمت في الملأ الأعلى، في المدينة محمد ﷺ واحة المتعبين، ودليل الباحثين، وحادي التائهين، في المدينة روح ورحمة للعالمين.

انطلق المشتاقان نحو حبيبهما ﷺ تسابقهما أسئلتهما، ويحدوهما الشوق نفسه، على الرغم من أن أبا بكر عرف تلك المشاعر من قبل، وكابد تلك الأشواق أكثر من غيره.

يقول حنظلة: «فانطلقت أنا وأبوبكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت: نافق حنظلة، يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟

قلت: يا رسـول الله، نكون عندك، تذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنـا رأي عـين، فـإذا خرجنـا من عنـدك، عافسـنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرًا».

تأمـل النبـي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ظمـأ صاحبيـه، وأدرك مـدى شـوقهما للمسـاحات التـي لم يقطعاهـا، شـعر بحنينهمـا إلـى تلـك السـماوات النورانية التي حلقا إليها، أدرك أنهما يريدان تحليقًا أعلى، وسفرًا لا يعرف الالتفات إلى الوراء، يريدان قطع المزيد، ومواصلة العروج عبر تلك الفضاءات التي تتلاشى أمامها كل مباهج الدنيا، لكنهما يهبطان على الرغم منهما، أدرك صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذلك، ثم طمأن حبيبيه.

طمأنهمـا على إيمانهما، لكنه كشـف لهما سـرًّا يأخذهما نحو حـدود ذلـك العـالم البعيـد القريـب الـذي ينشـدانه، العـالم الـذي تلتقـي فيه الأحلام بالحقيقة، والملائكة بالبشـر، والأرواح بالأرواح، فقـال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«والـذي نفسـي بيـده إن لـو تـدومـون علـى مـا تكونـون عنـدي، وفي الذكـر، لصافحتكـم الملائكة على فرشـكم وفي طرقكم، ولكـن يـا حنظلـة سـاعة وسـاعة.. سـاعة وسـاعة.. سـاعة وساعة»**[1].

(١) رواه مسلم (رقم٢٧٥٠).

لم يخصهما صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنوع من الصلوات، ولم يزد لهما في عدد الركعات، ولم يحدد لهما أرقامًا للتسبيح والتهليل والتكبير، اكتفى بفتح الأبواب؛ لأن الحديث هنا ليس عن الجسد والشريعة، حيث القوانين والأنظمة والسياج، والحلال والحرام والسنن والواجبات.

الحديث هنا عن عالم الأرواح الأخاذ، لذا اكتفى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفتح نوافذ الروح على هذا العالم الذي لا يعرف الحدود، اكتفى بإشراع بواباتها على سفر بلا محطات أو موانٍ، عالم الروح: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٨٥]. وحين يتحرق الشوق إلى عالم الروح يُذهل صاحبه عن كل شيء.

ترك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ روحي صاحبيه على مشارف عالم الملائكة، أجل، الملائكة ستصافحكم، ستتحدث إليكم في بيوتكم وفي طرقاتكم، ستؤنس وحشتكم، ولكن حين تعبرون طريقين تتحولون من خلالهما إلى أشباه ملائكة:

- الأول: تدومون على ما تكونون عندي.

- الثاني: تدومون في الذكر.

وكأن النبي ﷺ يخبرهم بأنهم سيشِفُّون، سيتماهون بتلك العوالم، ولكن بعد أن يتخففوا من الكثير، الكثير من بشريتهم، وذلك بأن يظلوا في حالة تأمل مستمر وذكر دائم، وهي حالة تعني إهمال الجسد والعقل معًا، وهو أمر بالغ الصعوبة، بل هو غير مطلوب، فعلى امتداد التاريخ حاول البشر بلوغ هذه الحالة علهم يلامسون تخومها، وما إن يشعروا باقتراب تلك التخوم حتى تبدأ رحلة التيه، يتحيرون، وتحيرهم تلك الشرفات الضبابية الأخاذة، يتخبطون في وصفها ومحاولة تعريفها وتحليلها.

حيرة عانتها الصوفية في عالم التدين، وعانتها البوذية في عالم الوثنية، وعانتها السوريالية في عالم الحداثة المادية اللادينية.

كل هذه التوجهات تتوهم أنها في الطريق إلى تجاوز تلك الحدود، واختراق تلك العتمة، وملامسة تلك العتبات التي تصل عالم المادة بعالم الروح عند الصوفية، أو ما بعد النرفانا عند البوذية، أو الخط الذي يفصل عالم الوعي عن عالم اللاوعي عند السوريالية.

الكل مشتاق، متحرق إلى معرفة ما بعد عالم الأرقام والأحجام، الكل متلهف لبلوغ النقطة التي تنمحي فيها الفواصل في هذا الكون، غياب الفواصل بين الجسد والروح، والغيب والشهادة،

والتماهي في العالم الآخر والهيام في فضائه، بعيدًا عن رقابة العقل والقانون والمنطق والأرقام وإكراهات الجسد.

الكل يريد أن يعيش مشهد العناق المهيب بين الموت على الحياة والتماهي بين المتناقضات، والوصول إلى تلك الأحوال التي تشبه تقلبهم في عالم الرؤيا في المنام، حيث يلتقي الأحياء بالأموات، وترفرف الأرواح في السماوات، وينمحي الحلال بالحرام، وتنطق الجمادات والحيوانات وكل المخلوقات، ويرى الإنسان ما لا يمكن رؤيته، ويلمس ما لا يمكنه لمسه.

أحوال مذهلة خارج نطاق العقل، وفوق طاقة الجسد، لذا كان الصوفيون والسورياليون والبوذيون يهونون من شأن العقل والجسد؛ لأن العقل يبدأ بفقد بوصلته خارج حدود المادة، وكأنه يسلك طريقًا من الضباب، العقل يبدأ بالتخبط، بالجنون لحظة وقوفه على حدود الغيب؛ لأنه لا يملك إحداثياته، ولا القدرة على رصده، العقل يشعر بالوحشة والإحباط حين يحاول إيجاد صفحات لذلك العالم يضع عليها مسطرته، يجن حين يراه عالمًا بلا صفحات، بلا مقاييس، ما جعل الصوفية يكثرون ترديد كلمات الغياب كالسكر والخمر، بل جعل السورياليين (فعلًا) يلجؤون للغياب ولبعض الحيل التعيسة للفرار من زنزانة العقل والوعي، يلجؤون للسكر، للخمر،

بل للمخدرات والتنويم المغناطيسي والسحر، لعل العقل يغيب ولو ساعات، لعلهم يحيدونه، أو يكسبون صمته.

العقل في نظرهم قناص متربص على طريق الروح، حارس غليظ على بوابة اللاوعي، ولا بد من التخلص منه، أو تخديره حتى يتمكنوا من التسلل إلى العوالم التي يقتلهم عشقها، كانوا يثقون بعالم الحلم أكثر من ثقتهم بعالم اليقظة؛ لأنه عالم بلا رقابة، لكن هلوسات المخدرات، وحالات السكر أبقتهم داخل الجسد، فوضى ظنوها لوهلة عالم اللاوعي، وهي في الحقيقة حالة فوضى واضطراب الدماغ والأعصاب.

البوذية والصوفية والسوريالية مارست إهمال الجسد، أو تعذيبه بالتجويع والإهمال وأحيانًا الاتساخ، كما ينسب للحلاج أنه يمكث الأشهر بلا اغتسال، عل الروح تنعتق من أقبية الجسد.

احتقروا عالم الشريعة والنظام؛ لأنه في نظرهم يسجن عالم الروح داخل قضبان من الأنظمة والقوانين التي تعيق انطلاقها وشفافيتها، ولهذا أسفر المشهد في العالم عن اتجاهات ثلاثة، هي أيقونات للضياع:

١- اتجاه يرى الإنسان عقلًا فقط، مع هامش صغير للروح والجسد، وهو الاتجاه الفلسفي التجريدي.

٢- اتجاه لا يرى في الإنسان سوى (المادة-الجسد)، مع هامش تافه للعقل والروح.

٣- اتجاه صوفي أو سورياليي ينظر للإنسان على أنه روح، على أنه اللاوعي فقط، مع تهميش للعقل والجسد.

في الاتجاه الأول هوَّن الفلاسفة من عالم الروح، بل حولوا الروح إلى مادة أخرى وهيولي، وحطوا من شأن الجسد والمادة؛ لأنها متحللة وفاسدة، بينما رفعوا من شأن العقل حتى وصفوا الله جَلَّوَعَلَا بأنه عقل، وأن الكون فاض عن طريق تفكره في نفسه، لكن هؤلاء الفلاسفة الذين ملؤوا الدنيا تنظيرًا حول العقل والمنطق، لم يخرجوا بحقيقة علمية واحدة منذ فجر الفلسفة سوى وجود الله، بل إن تميز كبارهم عن كبارهم، هو في خروجهم بنتائج مضحكة لا علاقة لها بالعقل، فأفلاطون تميز بنظرية المثل التي تقول: إن البشر مجرد أطياف وأشباح لحقائق وأمثلة موجودة في عالم آخر، يدعى (عالم المثل).

أرسطو قال كلامًا يخجل من قوله طالب في المرحلة الابتدائية، حين قرر عقله: إن المساحة التي بيننا وبين القمر هي عبارة عن عالم مادي فاسد وفانٍ، أما المساحات التي بعد مدار القمر، فهي

مساحات لعالم روحاني خالد لا يتعرض للفساد، وتلك النجوم التي نراها في الليل هي أرواح خالدة، وعقول أبدية لا تنتمي لعالم المادة.

أما أصحاب الاتجاه الثاني (المادي)، فكفروا بفلسفة أرسطو وأمثاله المنشغلين بتفسير الغيب بناء على عالم الشهادة، كما كفروا بالكتاب المقدس وخرافاته التي تقول: إن الأرض مسطحة، وإن المرأة قد تحمل جنينها في معدتها، وإن الجنين يتكون من الماء المقدس المخلوط بغبار الكنيسة حين يتلو عليه القس بعض صلواته. أصحاب الاتجاه المادي هذا أزاحوا الكتاب المقدس بالعلم التجريبي المادي، وفقدوا الثقة بعالم الغيب والدين؛ لأنهم فقدوا الثقة بالكتاب المقدس الذي يجعل مصافحة الأم أو البنت أو الزوجة أو الأخت إثمًا يستوجب الاغتسال وغسل الثياب أيضًا. هؤلاء الماديون جعلوا للعقل وظيفة واحدة هي خدمة الجسد.

جعلوا اللذائذ هي المنتهى والهدف، بعد أن فشل الكتاب المقدس في التصالح مع العلم الحديث، أو حتى الصمود أمام مكتشفاته. الحداثيون الماديون جعلوا الإنسان حيوانًا متطورًا يصارع من أجل البقاء ضمن بقية الحيوانات، في غابة شرسة تدعى الكرة الأرضية، صنعوا أسلحة تكفي لإبادة البشر عشرات المرات، وارتكبوا حروبًا

همجية لنهب الثروات، وشرعنوا الإرهاب والاستعمار والإبادات والمجازر، وكأنهم يريدون إثبات نظريتهم حول التطور والانتخاب التي تقول: البقاء للأقوى.

هؤلاء الماديون الحداثيون، الذين أنكروا عالم الروح والغيبيات لم ينكروا العقل، لكنهم جعلوا مهمته هي أن يكون نادلاً على طاولة الجسد، فحولوا العالم إلى حلبة للصراع على الثروات، ومارسوا إبادة البشرية بشكل وحشي وبشع بحجة نظرية التطور، التي ترى أن الإرهاب والقتل والإبادة شيء حتمي تفرضه الطبيعة ولا مفر منه.

الإرهاب والمجازر عند الحداثيين حلقة حتمية من حلقات التطور والصراع من أجل البقاء، ولذا أبادت الحضارة الغربية المادية الحداثية بشقيها الرأسمالي والشيوعي مئات الملايين من البشر، حتى فاق أعداد ضحاياها في القرن العشرين فقط أعداد الضحايا الذين سقطوا في كل الحروب الدينية وغير الدينية، منذ أن وُجد الإنسان على سطح الأرض بعشرات المرات.

إنها أرقام مفزعة، مرعبة أبادها العلماني الغربي الحداثي المتحضر؛ لأن الإنسان في نظره مجرد رقم، ولأن للعقل وظيفة واحدة هي خدمة الجسد وإشباع غرائزه.

مئات الملايين من البشر أبيدوا في حروب احتلال واستعمار همجية، لا هدف منها، ولا رسالة تحملها سوى السطو على ثروات الشعوب الضعيفة، التي لا تستحق تلك الثروات في نظر تلك الدول العلمانية المتقدمة، وما نهب ثروات إفريقيا، وشحن عشرات الملايين من نسائها ورجالها الأقوياء لأمريكا، وإبادة أكثر من عشرين مليونًا منهم، إضافة إلى إبادة شبه كاملة لسكان أمريكا الأصليين ثقافة ووجودًا (الهنود الحمر)، وما حق (الفيتو) المخصص لخمس دول نووية عظمى، إلا استمرار وتعزيز لنظرية التطور، وهو تعبير عن الوحشية الناتجة عن جعل الجسد فقط هو الإنسان، أما جمعيات حقوق الإنسان والمحاكم الدولية في تلك الدول فلا تعدو أن تكون واحدة من ثلاث:

- مساحيق لتجميل الجانب البشع للوحشية المادية.
- جمعيات بائسة لا تملك سوى الثرثرة والإعلام وتوزيع الجوائز.
- سلاح تتخذه الدول العظمى ضد من تريد النيل منه.

ونتيجة لهذه الدموية والعبثية ظهرت (السوريالية)، فقد نشأت احتجاجًا على وحشية المادية وحروبها العالمية، نشأت بحثًا

عن حقيقة أخرى للإنسان لا يحددها العقل، نشأت السوريالية هربًا من وحشية الخارج الذي ضاق بالإنسان، نحو الداخل الفسيح، وأملًا في اكتشاف هذا العالم الذي لا يقصي أحدًا، لكن رحلة الاستكشاف المريرة تلك فشلت؛ لأنها لم تخرج عن نطاق المادية.

إذًا، إن كان العقل وحده قد أدخل الإنسان في دوامة التجريد الغيبي، فلم يخرج منه بشيء، بل عزل الفكر في أبراج عاجية بعيدة عن واقع الإنسان.

وإذا كانت المادية قد توحشت، وأغرقت العالم بالدماء، فهل الاتجاه الثالث (الروحاني) هو الحل؟

الاتجاه الروحاني غامض

في الجانب الروحي، تبدو الأمور ملتبسة، تزداد غموضًا كلما اتضحت؛ لأن (الروح) أمر عصي على الرصد، لا كتلة لها، لا طول أو عرض أو لون أو وزن، لا طيف لها، ولا رائحة.

الروح هي الكلام الذي لا حروف له، والكتابة التي لا مداد لها، الروح هي الحاضر الغائب، هي الدليل الذي لا يُرى، والطريق الذي ينداح في كل الاتجاهات، الروح هي المحطة التي لا تأتي، والهدف

الـذي يبتعد كلما اقتربنا منه، ويتلاشـى كلما لمسـناه، ويزداد غموضًا كلما شعرنا بالتعرف إليه، الروح خارج مقاييس البشر وحدود الأرض، الروح أكبر من الجسد الذي تسكنه، وأجلُّ من أن يصفها العقل.

البوابـة الوحيـدة التـي قد تنفتح علـى عالم الروح هـي القلب، وما إن ينفتح القلب عليها حتى ينمحي، ويتلاشى بها، يصبح جزءًا منها، تضيع ملامحه فيها، تنمحي جهاته وكأنه داخل كعبتها، وكأنه يفنـى فيهـا وبهـا، تصبح الروح نبضـه وخفقاته، وحالـة الفناء هذه هي التي تحيرت الوثنية البوذية، وانشـلت على أسـوارها، وتخبطت السوريالية على تخومها، وهي أيضًا حالة تدعي مؤسسات التصوف اليـوم الانتمـاء إليهـا. فهـل حقًّا اسـتطاع التصوف اليـوم الرقي في معارجها والانفتاح على أنوارها، هل التصوف اليوم ينتمي إلى هذا النمط من الروحانية الأخاذة؟

الصوفية اليوم؟

ما يمارس اليوم باسم التصوف في الزوايا والتكايا والحضرات محير، فلا علاقة له بالروحانية، هو نوع من الشكلانية، المحاكاة، هو توهم، وتمثيل، واهتزاز جسدي، ورقص، وإيقاع... إلخ. سمِّه ما شئت،

لكن يصعب وصفه بالروحانية التي أشار إليها النبي ﷺ في حديثه السابق، بل إنه لا علاقة له حتى بالتصوف الحقيقي (إن صحت التسمية). ما يمارس اليوم هو رسم لنافذة على جدار، تبدو كنافذة، لكنها جدار، بل جزء من جدار.

ما تمارسه الصوفية لا علاقة له حتى بالقلب، بل هو سلوك يحول بين القلب والروح، يفصل لا يوحد، يحجب ولا يوصل، وكل المحاولات التي تحاول إظهار طرق التصوف روحانية وشفافة مجرد رسوم، لوحات جذابة من التموج الجسدي والرقص، والغناء المبلل، أحيانًا بالدموع، لكنها تظل تقنية تحيل التصوف من حيث لا تقصد إلى حالة مادية شاحبة.

تقنية تنقل التصوف من حالة فردانية ولحظة إخلاص وخلاص، إلى فِرقة، جوقة، مؤسسة، بل إلى إيديلوجيا وموقف، تقنية حولت التصوف إلى معتقل للروح بين جدران الأنظمة وسراديب المراتب والرتب والتعليمات، بل تحولت إلى أحزاب تنتهكها السياسة، ويبتذلها المال، وتقضي عليها الوجاهة.

أصاب التصوف الإسلامي ما أصاب الرهبانية المسيحية والتشيع، تحولت الكنيسة إلى مؤسسة مادية، كما تحول التشيع

إلـى كنيسـة أخرى، حوزة، مؤسسـة ماديـة، منظمـة للجباية وجني المال، مؤسسـة ربحية لا علاقة لها بالروح، تحول المنتمون إليها إلى موظفين ذوي طموح سياسـي ومـادي، ومراتب ومناصب تدر ثروات بالمليارات، الغائب الكبير في تلك المؤسسات التي أنشئت تحت لافتة (الروح) هو الروح.

نشـأت الصوفية في البداية كما نشـأت الرهبانية، حالة روحانية صرفـة، حالـة فريدة مـن الشـفافية والصفاء والإخلاص، بـدأت نقية تهرب كل الهروب من التقليد والرياء والوجاهة.

نشـأت تحليقًا في أجواء لا يدركهـا العقل، ولا يحتويها النظام، بعـد أن أدركـت أن العقـل يعتقـل الـروح، وأن النظام يحبسـها، وأن المادة تجعلها رهينة الأرض وأشياء الأرض.

نشـأت الصوفية توقًا، اتجاهًا حرًّا ظامئًا نحو الله، فؤادًا يتقلب بأنوار الشوق له، متلاشٍ في مناجاة الحبيب وذكره سبحانه، الروحانية أقصـى نقاط الخصوصية، وأنقى حالات الإخلاص لله، وأعمق نقاط الشـعور به سـبحانه، هي فرار كل الفرار من مسارح الرياء، لكن منذ أن تحولـت الصوفيـة إلى مراتب ودرجات، وشـيوخ ومريديـن، وأزياء وألوان وطُرق وخِرق، أمست طلاء وأصباغًا تخنق الروح.

الصوفية التي انطلقت هربًا من سياج المادة والجسد أصبحت سياجًا آخر لهما، أمست وهي التي تعلن التحرر من العقل والنظام رتبًا ودرجات وأنظمة وطقوسًا ومراحل، بل إنها أصبحت تتسول العقل أن يبرر انتكاستها.

كان الجسد بالنسبة إلى الصوفية النقية لا يعدو أن يكون منصة للانطلاق في رحلة للروح، رحلة للتحليق في آفاق الغيب وأنواره، عروجًا لا يريد النزول عن سماواتها، ولا الاكتفاء بمحطاتها؛ لذا يجد الصوفي الحقيقي نفسه أكثر ما يجدها في العزلة عن الناس، في مفارقة مجالس اللغو والجدل، والانتصار للذات والأنا، وتصنيف العباد ونهب البلاد، بل إن منهم من لم يجد نفسه إلا في البراري والقفار.

الروحاني النقي يجد نفسه حول نبع ماء بين غنيمات يتهادى بها عبر الشعاب والأودية، ويكتفي بالقليل من الزاد، والكثير من الذكر والمناجاة والحب والشوق، أكثر مما يجد نفسه بين إخوته الصالحين.

أما اليوم فقد انتهى المشهد الصوفي إلى شيء غريب، غدا مشهدًا منغمسًا في المحاكاة، تمامًا كالمشاهد التمثيلية في الأفلام

والمسلسلات، يرى المُشاهدون فيها نوبات من البكاء، أو الضحك، أو الفرح أو الفزع، والذي يخطف النجومية هو أبرعهم تظاهرًا وتقمصًا وتمثيلًا.

يخيل لمن يرى تلك المشاهد الصوفية أنها حالات تهتز، وتصرخ من أقصى الأعماق، من شدة الوجد، من قوة الوارد على القلب، من نشوة التلقي لأنوار الله، حتى يكاد يصدقها، بينما هي في حقيقتها ذروة البراعة في التقليد والمحاكاة، إنها محاكاة لمحاكاة، وعوضًا عن أن يمارس المتصوف مناجاة صادقة لله، منعزلًا، منسربًا في سكون مسكون بلوعة الحب وحرارة الشوق، أصبح رئيس الطريقة الصوفية لا يطيق العيش دون حاشية تطوف به، وجمهور يهتف له، ومريدين يقبلون يديه، ويلثمون رجليه، يتمسحون به، ويرجون بركته، ينتظرون دعوته، يشعر شيخ الطريقة بالزهو وهو يرى رجاءات الحشود والمريدين ونظراتهم متعلقة به، وهداياهم وأموالهم وهباتهم تنثال بين يديه، يمجدونه، يُدافعون عن زلاته وكوارثه، ويبررون ممارساته، وبدلًا من أن يكتفي الشيخ الولي بالجلوس على صخرة قرب غنمه، أو النوم على الرمال مفترشًا بردته، متوسدًا ساعده، أصبح يطل على مريديه من على عرش كالملوك!

بينما يشد أعرابي طيب من هوازن الرحال، يقطع مئات

الأميال والأودية والجبال، يحدوه الشوق نحو طيبة، وحين يصلها يتعاظم شوقه، يتهادى به عبر طرقاتها بحثًا عن صفوة الأنبياء وخير الأولياء محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل عن أتقى الناس وأخشاهم لله، يسأل الناس في الطرقات؟ فيشيرون عليه بالتوجه للمسجد، فيحرك الأعرابي بعيره، يتمايل به وكأنه خفق قلب عاشق، حتى رأى بوابته وكأنه يرى أبواب السماء.

لم يتوقف عند الباب، ولم ينزل، حرك بعيره مرة أخرى، وأرخى زمامه، فتهادى به عبر الباب، ولما أصبح وسط ساحة المسجد تلفت يبحث عن مهوى القلوب وشاغل الناس.

تلفت يبحث عن حاكم الجزيرة العربية كلها، يبحث عن عرشه، عن كرسيه، عن سجاد أحمر، عن رداء أرجواني، أو أساور من ذهب، أو تاج مرصع بالجواهر.

جال طرفه يبحث عن حرس، عن خدم، عن تمايز في اللباس وطبقات للمريدين، أو رجال دين، أو حتى حرس ورماح وسيوف، ومراسم للمثول بين يديه، فلم يجد.

عاد طرفه حسيرًا، حيره المشهد داخل المسجد المتواضع المسقوف بجريد النخل، تلفت مرة أخرى، ولكن هذه المرة بحثًا عن

مكان لبعيره في نواحي المسجد، ولما لمح موقفًا حرك البعير نحوه، ثم شد زمامه، وأوقفه، وأناخه، ونزل.

قام بجانب بعيره حائرًا، لم يعد للبصر قدرة على التمييز، تاه في عالم مدهش من التواضع والتماهي بالشعب، فهتف بالكل، وكأن الكل محمد ﷺ هتف بالجالسين المتعجبين من جرأته، وصاح بهم جميعًا: «أيكم محمد؟».

أيكم محمد؟... سؤال بحجم السماء.

هنا أجابه بعض الجالسين المحيطين بالنبي ﷺ كالحنايا حول القلب، وأشار، وهتف: «هذا الرجل الأبيض المتكئ»[1].

هكذا كان أتقى الناس وأخشاهم وأقربهم لله.

هكذا كان نبي الإسراء والمعراج ﷺ.

هكذا كان شفيع الأمة وخاتم الأنبياء. هكذا كان من يعتذر كل الأنبياء عن الشفاعة الكبرى إلا هو.

هكذا كان خير الأولياء وخليل الله وصفوته من خلقه ﷺ.

---

(١) رواه البخاري (رقم٦٣).

هكذا كان حاكم الجزيرة العربية من البحر إلى البحر، لا تفصله عن أصحابه وتلاميذه سوى المشاعر، ولم يتميز عن شعبه بلباس أو مسكن أو طعام أو حتى مجلس، إن لم يكن أقلهم فهو من أقلهم.

فإذا تجاوزنا عوالم الأنبياء إلى عالم الأولياء، وجدنا الخضر.

الخضر، ذلك الرمز الذي حيكت حوله الأساطير والأكاذيب، وتغنى الصوفية بكراماته، وادعى البعض لقاءه. إذا اتجهنا للخضر وجدنا القصة الصحيحة والوحيدة حول شخصيته، هي قصته مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وفي تلك القصة لم يقل الله عَزَّوَجَلَّ لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ادخل مدينة كذا، واسأل عن الخضر، فالكل يعرفه، وهو أشهر من نار على علم.

لم يقل له: ستجد قصره بارزًا وسط تلك المدينة أو تلك.

لم يقل له: ستجده وسط مريديه وحاشيته.

أوحى الله إليه أنه سيجده في لا مكان، في العراء وحيدًا على أحد السواحل، ولذا: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ [الكهف: ٦٠]. أجل، الخضر الذي طالما حيكت

حوله الأساطير، وأحيط بهالة من التقديس، وجعله بعضهم أفضل من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان وحيدًا متواضعًا منعزلًا على أحد السواحل، وقد اضطر موسى إلى السفر للعراء وبمحاذاة الساحل كي يجده.

أما اليوم، فيحيرني هذا التصوف، ويحزنني، فقد شوهت جماله الأصباغ والأزياء، يحيرني ما يحدث في الحضرات الصوفية، فهو نقيض للروحانية؛ لأن الصوفية الحقيقية قامت على مفارقته، الصوفي الحقيقي يزيح غبش الكبر والغل والحسد، والأثرة والتصنيف عن نوافذ قلبه، عل وميضًا من عالم الروح ينفذ من خلالها.

الصوفي الحقيقي ينقي قلبه من الأحقاد والإقصاء؟

الروحانية تبدأ بالشرطين اللذين ذكرهما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقاء الملائكة، وهما:

- الأول: تدومون على ما تكونون عندي.
- الثاني: تدومون في الذكر.

المداومة على الذكر أفضل حالات الاتصال بالله، حالة تحطم الفواصل بين الحياة والموت، تجعل المحب لا يدري أفي الدنيا هو أم في الآخرة، فكل لذة تذكره بالآخرة، وكل طريق يسلكه مشرع على

عـالم الخلـود، هو في صلـة مع الله خارج المسـجد أكثر وهـو داخله، فالكون كله محراب يذكره بحبيبه وخالقه وإلهه سبحانه.

يشـعر بكلمات ملك الملوك ومالك الكون، وخالق الكون والملوك الـذي يقـول: «**أنـا عنـد ظـن عبـدي بـي، وأنـا معـه إذا ذكـرني، فـإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»[1].

أمـا الهوس بحب الظهـور والرياسـة والألقـاب، فمؤشـر على انطفاء شـمعة الروح، مؤشـر على تحول التصوف إلى غلاف جميل لعلبـة فارغة، يمسـي معهـا الصوفي والغًا في المتـع المادية المحظورة، بحجة أنه بلغ منازل فوق التكاليف.

لم يكتـفِ الصـوفي اليـوم بذلك، لقد تمادى حتى بلغ مسـافات مهلكـة مـن اليبـاب، تـاه في مسـاحات جفـاف تعصف ريحهـا حتى بلافتة الروحانية.

إنهـا حالـة تُدعـى الانشـغال بإقصـاء الآخريـن وتصنيفهـم، فالتصنيـف عمـل علمـي عقلـي، يفترض أن يتـم بعيـدًا عـن عـالم

(١) رواه البخاري (رقم٧٤٠٥) ومسلم (رقم٢٦٧٥).

الـروح وحتـى العواطف والقلـوب، فإذا ما وجهتـه القلوب، وتحكمت بـه العواطف، تحول إلى حالة نفسـية وموقـف، تحول إلى نزعة تعيد الصوفية إلى الباب الذي هربت منه.

أجمـل مـا في الروحانيـة هـو نقاؤهـا وبعدهـا عـن الاسـتعداء والتحريض والاسـتقواء بغير الله؛ بعدهـا عـن التهـور في إطـلاق الأحـكام؛ لأنهـا حالـة فردانيـة من العـروج والارتقـاء في رحلة كلها إخلاص لله، الروحـاني لا يلقـي بالاً لمنافـس، ولا يضيره أن يسـبقه غـيره مـا دام محلقًـا في تلـك الرحلة، لأنه ليس مسـكونًا بمنافسـة الخلق، أو إقناعهم أنه ضمن تلك الرحلة.

الفردانية أهم ميزات الروحانية

أن يخـترع الإنسـان طقوسًـا، أن ينتقي طريقـة للتصوف، أمر لا يختلـف أبـدًا عن التمذهب والجمود على التقليد، تحديد طقوس ورتـب ومراحـل، وتراتيـل لهـذه الطريقـة، أو لتلـك، هـو قتـل لمعنى الروحانية، وطقوسه من أتعس أنواع التقليد.

قد تُقلد شـخصًا في صلاتـه، في حجه، في صومه، في هيئته في سـمته وصمتـه ونطقه، لكن من المسـتحيل أن تقلده في خشـوعه، في

إخلاصه؛ لأن التقليد مهنة الجسد، أما الإخلاص والخشوع فمعارج للروح لا يمكن كتابتها، أو رسمها، أو وصفها أو حتى تعليمها، إنها حالات ومشاعر لا تصنع، ولا تصمم، إنها أشياء خارج الأشياء، خارج نطاق الرسم والشرح والتعليم.

لا يمكن رسم الحب، أو وزن العواطف، أو تصوير الشوق، أو تعليم الحنين.

الطرق الصوفية اليوم تحدد أرقامًا، ترسم دوائر واهتزازات وتصمم رقصات، وتخرِّج دفعات، وكأنها دكاكين.

الروحانية الحقيقية حالة فردية، حالة خاصة، تأتي ولا تستدعى، انفعال لا افتعال، هي سكون للحواس في عالم مهيب غير محسوس، وإذا كانت السلفية الفقهية والسلفية العقائدية تعنيان الشرب من النبع الذي ينزل نقيًّا من السماء (القرآن والسنة) تعنيان التحرر من تقليد الرجال، والتعصب لأقوالهم، أو التحول إلى جمهور لهم، فإن للروحانية سلفية أرقى وأنقى، إنها انطلاق الروح نحو الله بعيدًا عن الرفقة، بمنأى عن التقليد والمحاكاة والادعاء والرياء والتجمهر.

في الروحانية النقية لا يقول المرء: «أريد أن أصل إلى مستوى

الـولي فلان، أو ليتني أصل إلى مسـتوى الولي فلان». هذه العبارات يمكـن تبريرها، يمكن تفهمها لو قالهـا عالم أو فقيه، أما الروحاني فـلا يعرفهـا؛ لأنـه يجهـل أين وصـل فلان، يجهـل ما الـذي أوصله، الروحانية حالة لا مدارس لها، ولا مكتبات، ولا معلمون أو أسـاتذة، حالـة يصبـح الإنسـان فيها بلا حول ولا قوة سـوى حـول الله وقوته. يصبح وهو في قمة روحانيته في أشد حالات انكساره وانطراحه على أعتاب حبيبه سبحانه.

الـولي الحقيقـي تطـرق روحـه أبواب السـماء في الوقـت الذي يلتصـق فيه جبينه بالأرض، حيث يقول نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»[1].

القرب هنا بالروح، لكنه خضوع بالجسد سجودًا لله وتذللًا له، بجعـل الجبين ملتصقًا بالأرض، تعبيرًا عن عبادته وحده، واعترافًا بعظمتـه وجلالـه وهيبتـه والحاجـة إليه، مهمـا كانت رتبة السـاجد الاجتماعية أو الاقتصادية أو العسكرية أو السياسية أو العلمية.

حالـة لا حضـور فيها للمنافسـة مع أحـد، أو المقارنـة بأحد، أو الرغبـة في التفـوق علـى أحد، فقد غـاب كل الخلـق، ولم يعد المحب

---

(١) رواه مسلم (رقم٤٨٢).

يرى سوى حبيبه سبحانه، يناجيه، يدعوه، يقسم عليه، يحسن الظن به، يشعر بمعية الله سبحانه وهباته، فيغيب الخلق وسطوتهم وسلطتهم وجاههم ومالهم.

إنها حالة، بل هالة سألها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سجوده، فقال: «**اللهم، اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، واجعلني نورًا**»[1].

في الروحانية الحقيقية يقف العقل إلى جوار الجسد يتفرجان مأخوذين، يجلسان على مقعد غير مخصص للتعليم أو الرصد، بل للاندهاش والانخطاف، وما يحدث من قشعريرة، أو اهتزاز، أو ارتجاف للفؤاد، وما يفيض من دموع، ما هو إلا تأثر بما لا يمكن لمسه بالأيدي، أو رؤيته بالعين، أو وصفه بالعقل، إنه سفر، غياب في عوالم لو ذاقها المحبوسون في الجسد لتحرروا.

أما ما تمارسه الطرق الصوفية، فلا يتجاوز سياج الجسد وقضبان المادة، مهما أغمضت الأعين، وترنحت القامات، وعلا الصياح، وتنوعت الرقصات، وتصبب العرق، وفاحت الروائح،

---

(١) رواه مسلم (رقم٧٦٣).

فالروحانية حالة من السكون تعبر عن توقف الجسد والعقل على مشارف عالم من الجمال لا حدود له، وبحار حب لا يجيدان العوم فيها.

إضاءة

هناك من يرى أن عجز العقل والجسد عن إدراك عالم الروح، يوحي بأن الروحانية هي الطريق الأعظم نحو الله، وهذا تصور مغلوط، فالطرق إلى الله كثيرة، وعظمتها ليست محصورة بعالم الروح.

هناك طرق نحو الله عبر الجسد، وطرق عبر السياسة، وطرق معبدة بالخوف، وطرق معبدة بالرجاء، وطرق مزينة بالرحمة، وطرق معبدة بالعطاء، وطرق محفوفة بالنظام (العدل)، وطرق مضاءة بالشوق والحب.

يقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله:**

إمام عدل.

وشاب نشأ في عبادة الله.

ورجل قلبه معلق في المساجد.

ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه.

ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله.

ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه.

ورجل ذكر الله خاليًا، ففاضت عيناه»[1].

الروحانية أكثر ما تتجلى في هذا الأخير، الذي يذكر الله خاليًا، فتفيض عيناه حبًّا أو شوقًا، أو رجاءً أو خوفًا، أو خشوعًا، ولكن بعيدًا عن الناس، بعيدًا عن المظاهر، حيث أصفى لحظات الاتصال بالله، حيث لذة المناجاة لأحب حبيب، وبث الشكوى لملك الملوك وخالق الملوك، وهي لحظات ليس لها طقوس أو مراسم، ولا يمكن افتعالها، لحظات أو دقائق، تجتاح الروح، تسبح بها عبر عوالم كالنور، أو في عوالم من نور، قد يميد الجسد بعدها أو يهتز لا إراديًّا، فما يغشى القلب يذهله عما حوله، وما إن يشعر المرء بحركة أو نظرة متطفلة، حتى يبدأ ذلك الشعور بالخفوت والتلاشي، وكأن الدخيل يفسد خلوة الذكر وحرارة الشوق، ولذة المناجاة للحبيب جَلَّوَعَلَا.

(١) رواه البخاري (رقم١٤٢٣).

في المقابل تثير مشاهد الصراخ والتأثر المفتعل بين أصحاب الطرق الصوفية، الاستغراب والتساؤل؛ لأنها حالات تحدث أمام الناس، بل لا تحدث إلا أمام الناس وبين الحشود، وكأنها مسرحية، احتفالية أكثر من أي شيء آخر، فليس هناك ممثل يؤدي دورًا أمام كراسي فارغة.

مسالك الولاية

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «**من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه**»[1].

هذا الحديث القدسي المهيب يضيء أهم دروب الولاية نحو الله، دروب خطواتها الأولى المحافظة على الفرائض، أداء الفرائض أساس الولاية: التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج والعدل

---

(١) رواه البخاري (رقم٦٥٠٢).

وبـر الوالديـن وكف الأذى والتخلص من الأحقاد والحسـد والرياء و...تلـك هـي جـذور الولايـة، منهـا تنمـو شـجرتها، منهـا تتغـذى، وتتفـرع، وتـورق، وتزهر، ثم تسـافر في السـماء حبًّا ولوعة وشـوقًا، والسـفر يكـون عـبر النوافل ذكرًا أو دعـاء أو صدقة وبـذلًا أو رحمة للإنسان وللحيوان وحتى للأشجار أو...

قد يصاب الروحاني بانتكاسات منها:

أن ينتقـل من حالة المعاناة إلى حالـة الراصد، المراقب؛ أي أن يحاول تفسير ما يجري له.

تتمثـل الانتكاسـة هنـا في الانتقـال مـن عـالم الـروح إلى عالم العقل والجسد، وذلك حين يستعين المرء بالفلسفة لتفسير ما يجري له، هنا تنهال العروض من شتى الفلسفات الشرقية والغربية، وهنا تتسـلل فكـرة الاتحاد والحلـول والوحـدة وغيرهـا؛ لأن العقل هنا لا يمتلـك أدوات معرفيـة للروحانيـة، وأمـام عجـزه إزاء ذلـك لا يرى سـبيلًا أو حلًّا سـوى أن يقوم بتحويل الروح إلى مادة، كي يسـتطيع أن يطلق عليها أحكامه وتفسيراته، وما عبارات ابن عربي والحلاج وغيرهما إلا نتيجة لحشر الفلسفة في عالم غير عالمها.

إن تقسـيمات ابـن عربـي وغـيره وتعريفاتهـم للهـوى والحـب

والعشق والوجد وغيرها، تقسيمات مادية عقلية تفسد الذوق والمشاعر وتفسد الحب، بل تفسد الروحانية نفسها، تحولها إلى قضية عقلية مادية، هي افتعال لحدود في عالم غير محدود.

ملاحظة أخرى

الإنسان مهما بلغ من الروحانية يظل بشرًا؛ أي إن الطموح والشهوات والغرائز وحب الذات تظل جزءًا لا يتجزأ من كيانه البشري لا يستطيع الانفكاك عنها، ومن لوازم هذه الكينونة أن يكون معرضًا للإصابة بالضعف أمامها أو أمام بعضها، قد يصاب بالعجب نتيجة مروره بحالات من الشفافية الأخاذة، فيظن أنه لم يعد في حاجة إلى جذور الولاية السابقة، وكأنه ورقة ترفرف على أعلى غصن شجرة سامقة، بعيدًا عن التربة، مرتفعة لا ترى سوى الشمس والهواء، تظن أنها ليست في حاجة للتربة، ولا للماء، وأنها لم تعد تنتمي لتلك الجذور المنغمسة في أعماق الطين والطمي، بل تنتمي للسماء.

انفصال تلك الورقة وتقلبها في الهواء هو تلك الشطحات التي تظن أنها في أسمى لحظات السمو والانعتاق من عالم الأرض، وأنها في طريقها لتلتحق بعالم السماء.

هـذا التقلـب هـو تمامًـا كتلـك الشـطحات التي تدعـي الحلول والاتحاد، وما إن تخف الريح حتى تهوي الورقة نحو الأرض، تهتز مع كل نسـمة وكأنها تلفظ أنفاسـها، تبدأ بفقد لونها، تصفر، تشـحب، ثم تيبس.

عندمـا يقـول الحـلاج: «أنا الحـق» كان في حالـة انفصال عن الجـذور والأغصـان، كان في حالـة تقلب توشـك أن تيبـس، اجتاحه العجـب بعـد أن فلسـف ما يجـري له، وكأنـه لا يطيق أن يعيش تلك العوالم دون تفسـير، لم يعد منشـغلًا بالله، أصبح منشغلًا بمحاولة معرفـة ما يجري له، وعقلنة ما وصل إليه. أصبح الحلاج متفلسـفًا، لا متماهيًـا بمـا يفيض على قلبه، نسـي من أعطاه، نسـي من منحه حين رأى أشـياء يظن أن غيره لا يراها، فبدأ بجعل نفسـه مقياسًـا للآخريـن، بـل قبلـة لهـم، خُيِّـل إليـه أنه مـا دام قـد عرف أسـرارًا وكرامات ورؤى، فلا بد أن ذاته ليست كالذوات.

تضخمـت تلك الذات، انتفخـت الأنا عنده، وبدلًا من أن يقول: هـذا مـن فضل الله وكرمه، زعم أن ذاته خارقة، زعم أنها جزء من الذات الإلهية؛ لذا بدأ يطالب النـاس بالانشـغال به، بالطواف حول منزله، أصبح قارونَ آخرَ، ولكن بلا أموال أو كنوز ومفاتح للخزائن.

المأساة التي تعرض لها الحلاج وابن عربي وغيرهما ليست في نفور الناس وتقززهم، أو حتى في موقف السلطة منهم، بل في تسويقهم للدجل، وادعاء وضع عالم الروح على طاولة التشريح، بينما يفترض بالولي حين يعظم الوارد على قلبه أن يستسلم لتلك المنة، وأن يتماهى بها، وأن يكون تماهيه شكرًا وذكرًا وشوقًا لواهبها الذي ليس كمثله شيء.

لكن عندما يتحول الولي إلى فيلسوف، مُنظِّر، مُفسِّر يحشر عقله لتكييف عالم لا ينتمي إليه، هنا يبدأ الانحراف، ينطلق الحكم من عالم المادة، لا من العالم الروحاني؛ أي إن الصوفي بدأ مرحلة التخلي عن الروحانية.

بعدها تبدأ ألاعيب العقل وأرقامه ومقارناته، وأولها محاولة قياس المسافات بينه وبين الله، وبينه وبين الآخرين، تتورم الذات، تشعر بالتفوق لا بالهيام والانخطاف، فتظن أن مسألة الاقتراب من الألوهية مسألة مسافات ووقت، ثم يبدأ تصديق الوهم حول قطع تلك المسافات، ثم ينتهي المطاف بخرافات الحلول والاتحاد.

يبدأ الصوفي في الادعاء والتعالي على الغير، بل ومطالبة الغير بشيء مما لله، بينما كان أعظم الأولياء والأنبياء محمد ﷺ،

وبعد أن دانت له الجزيرة العربية كلها، وتداعت قبائلها العظيمة نحوه حبًّا وولاء، وسالت جموعها من كل حدب وصوب لتكحل عيونها بمرآه، وتعلن توحيدها لربها، وتقدم له البيعة والانضواء تحت رايته.

في تلك الأجواء التي يزهو بمثلها محدودو الأفق ومدعو الولاية، ليغترفوا من متع الدنيا، ويمتحوا من ملذاتها ما يشبع غرورهم، ويتخففوا من المحظورات ما يشوش على أجواء متعتهم وملذاتهم.

في تلك الأجواء التي تسكر المحبوسين في الجسد، كان سيد الأنام وخير الأولياء ﷺ يقول لهذا الطوفان الجارف من القلوب والمحبين المتعطشين له، لكل امرئ متأهب لأن يفديه بماله وروحه: «**لا تطروني، كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبدالله، ورسوله**»[1].

يقول ﷺ ذلك وهو النبي الذي سما للسماء، ورفَّ بين الملائكة وأرواح الأنبياء، وطاف بين الجنان، فكيف يجرؤ رجل يعجز عن تفسير ما يجري له، أن يطالب الناس بالطواف حوله والتمسح به وتقبيل قدميه؟!

---

(١) رواه البخاري (رقم٣٤٤٥) ومسلم (رقم١٦٩١).

هـذا هو الفـارق بين الولي والنبي، الـولي حالة حب، إخلاص، عزلـة وأسـرار، وقـد يموت دون أن يعرفـه النـاس، ودون أن يؤثر في النـاس، أمـا النبـي فحب ومعجـزات وأسـرار، ولكن رسـالة وحركة وعمل وإبداع ونقل للعالم من حال إلى حال؛ لذا فلا مقارنة.

الـولي الحقيقـي، وهـو يرنـو بروحه نحـو الأعلى، نحـو الله، لا ينسـى ضعفه إزاء قوة الجبار، لا ينسـى فقره أمام غنى الله الذي لا حدود له، فالسـر في الله، وليـس في الإنسان، والفيض من الله لا من عبادات الولي ومجاهداته، فالعطاء بيده، والجاه بيده، والمال بيده، والهداية بيده سبحانه.

حين يعتقد الولي تفوقه على النبي يكون قد خسر الولاية.

حين يسأل الولي غير الله، فإنه لا يعرف الله.

حين يسـتكثر المرء العطاء على الله، فيلوذ بمخلوق كي يتوسط له عند الله فهو لا يعرف الله.

أجـل، لا يعـرف الله، فـالله سـبحانه يقـول: «**يـا عبـادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدِكم.**

يا عبادي، كلكم جائع، إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم.

يا عبادي، كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسُكم.

يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري، فتضروني، ولن تبلغوا نفعي، فتنفعوني.

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا.

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا.

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا، فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومنَّ إلا نفسه»[١].

---

(١) رواه مسلم (رقم٢٥٧٧).

فهل من يتعلق بالبشر وعطايا البشر، وجاه البشر ومدح البشر مدرك للولاية؟ فكيف إن كان هذا البشر ميتًا يتمسح الولي بقبره، ويستغيثه، هنا تتلاشى الولاية، فكيف بمن يدعي الولاية وهو يستعدي، ويظلم، ويحرض على الظلم والإقصاء، هل يعرف هذا من هو الله؟

هل يعرف الله الذي قال في بداية الحديث القدسي السابق: **«يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا»**.

هل يعرف هذا الاستعدائي مدى رحمة الله بخلقه، مدى حبه لمن يحدب على عباده الضعفاء، هل يستشعر هذا المستعدي خطاب الله العذب، وهو يقول له:

«يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني؟ قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟

يا ابن آدم، استطعمتك، فلم تطعمني، قال: يا رب، وكيف أطعمك، وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان، فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

يا ابن آدم، استسقيتك، فلم تسقني؟ قال: يا رب، كيف أسقيك، وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقِه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي»[1].

كلمات تحيل الأرض ربيعًا، واحة حب وسلام، كلمات غاية في الرحمة، غاية في الإيحاء، غاية في الإضاءة، عبارات تعصف بالقلوب، تضرم نار الشوق في الحنايا، فالخالق الجبار سبحانه يخاطب عباده الذين خلقهم، وأعطاهم، وأغناهم، فيقول:

يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني!

استطعمتك فلم تطعمني!

استسقيتك، فلم تسقِني!

تفيض العيون، وتتردد الألسن قبل النطق بهذه الكلمات، وتتساءل القلوب، وقد تماهت بها أطياف الوجل والشوق والحب والرجاء، تتساءل عما يطلبه الحبيب سبحانه؟ فإذا الإجابة إضاءة لدروب أخرى للولاية، ومعارج أخرى للقرب من الرحمن الرحيم الذي يجعل مسح رؤوس الأيتام وتحسس معاناة الأرامل والضعفاء والمرضى والجائعين والمشردين من أرفع درجات الاتصال به

---

(١) رواه مسلم (رقم٢٥٦٩).

سبحانه، ويجعل لحظات السجود الأقرب منه جَلَّ وَعَلَا، وبين السجود للجبار، والحدب على الضعفاء يلهج قلب الولي:

إلهي، أنا مجرد عبد لك سبحانك، وأنت إلهي وربي، أنا مجرد عبد، وما بين يدي من نعم، وما أراه من كرامات، وما يجري أمام عيني من أمور التأييد، وما يرد على قلبي وروحي، أمور أتتني ليس لأني أستحقها، أو لأنها نتيجة خطوات مدروسة قمت بها، أو مقابل صلوات أديتها، أو صيام كابدته، السر في حدوثها هو أنها منك، من فيضك سبحانك.

السر هو في كرمك وعطائك وفضلك، وخزائنك التي لا تنفد، لا في كثرة العبادة أو قلتها، أو كثرة العلم أو قلته.

ذات يوم دخلت امرأة وجيهة اسمها (خولة بنت حكيم) وهي زوجة رجل عظيم اسمه عثمان بن مظعون، دخلت خولة «على نساء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرأينها سيّئة الهيئة، فقلن لها: ما لك؟ فما في قريش أغنى من بعلك؟

قالت: ما لنا منه شيء، أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم، فدخل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكرن ذلك له».

وبعد مدة لقي النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صاحبه الراهب، ولما أصبح أمامه أنار له دروب الولاية بسؤال قال فيه: «يا عثمان بن مظعون، أما لك بي أسوة؟ فقال: يا بأبي وأمي، وما ذاك؟

قال: تصوم النهار، وتقوم الليل؟ قال: إني لأفعل.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تفعل، إن لعينيك عليك حقًّا، وإن لجسدك حقًّا، وإن لأهلك حقًّا، فصلِّ ونم، وصم وأفطر (يا عثمان، إن الرهبانية لم تكتب علينا، أما لك فيَّ أسوة؟ أما والله إن أخشاكم لله، وأحفظكم لحدوده لأنا)»[1].

مرت الأيام، فتخلى ابن مظعون عن رهبانيته التي كادت تلغي بشريته، منح أهله لطفه، ومنح جسده حقه، ومنح عينيه حقهما وتهادى في طريق خير الأنبياء والأولياء، فتغيرت حال زوجته العظيمة، وبعد مدة خرجت لزيارة أمهات المؤمنين، (فأتتهن بعد ذلك عطرة كأنها عروس. فقلن: مه؟ قالت: أصابنا ما أصاب الناس)»[2].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٣٩٥).

(٢) رجاله ثقات، لكنه مرسل إلا إن كان أبو بردة صحابيًّا، رواه ابن سعد (٣-٣٩٤) أخبرنا الفضل بن دكين، أخبرنا إسرائيل، وأخبرنا الحسن بن موسى، أخبرنا زهير، أخبرنا أبو إسحاق عن أبي بردة. وللحديث شاهد بسند صحيح رواه عبدالرزاق (٦-١٦٧) عن معمر عن الزهري عن عروة وعمرة عن عائشة. وما بين القوسين الكبيرين هو ما جاء فيه من حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بحسب هذا الحوار الجميل، فإن أجر ملاطفة الزوجة والأولاد وقضاء حوائجهم ومراعاة مشاعرهم وتفقد أحوالهم أثقل (أحيانًا) من أجر قيام الليل وصيام النهار، على الرغم من أنها قد تكون لهوًا ومرحًا أو شهوة ومتعة؛ لأن المسلم كغيره من بني آدم مخلوق لخلافة الأرض، وهو أولى الناس في الاعتدال والتوازن بين مكوناته الروحية والجسدية والعقلية، وعبادة المرء مهما كثرت تظل رقمًا محدودًا.

تظل لا شيء أمام فيض الله اللامحدود، وحتى لما مات هذا الرجل الصالح الصوام القوام عثمان بن مظعون، كان موته إضاءة لأحبابه، كان موته وعيًا وحياة للقلوب، فقد بكته حبيبته وزوجته العظيمة خولة بنت حكيم، وبكته نساء، وبكاه الرجال، وبكاه حبيبه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، انحنى عليه من شدة الحزن، وقبَّله حتى سال دمعه على خديه، فكان مشهد جنازته والأحباب حوله مؤلمًا.

كان مشهد شهيق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو منحنٍ عليه يذيب الصخر، فقد «دخل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عثمان بن مظعون يوم مات، فأحنى عليه كأنه يوصيه، ثم رفع رأسه، فرأوا في عينيه أثر البكاء، ثم أحنى عليه ثانية، ثم رفع رأسه، فرأوه يبكي، ثم أحنى عليه

الثالثة، ثم رفع رأسه وله شهيق، فعرفوا أنه قد مات، فبكى القوم. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مه، إنما هذا من الشيطان، فاستغفروا الله**». طالبهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالاستغفار لا من أجل البكاء؛ لأنه بكى قبلهم، وهو لم يحرم البكاء على الميت، لكنه نهى عن رفع الصوت نواحًا على الميت، ويطلق عليه بكاء أيضًا، ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اذهب عنها أبا السائب، فلقد خرجت، ولم تلتبس منها بشيء**»[1].

كانت عائشة هناك، حزينة كالحاضرين، شاهدت دموعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يبكي، يشهق، يشهد لعثمان بالزهد، بالنقاء والصفاء من الدنيا، وزوجته تشهد له بالصيام والقيام، ألا يكفي ذلك للجزم بدخوله الجنة؟

العواطف تثور، تستنكر، وتحتج، وتقول: إذا لم يحكم لعثمان فلمن يحكم؟ العواطف تحاول أن تحكم، والحكم عمل عقلي له ضوابطه، لكن حين تنطق به العواطف يتلاشى، لا يصبح حكمًا، يغدو مشاعر.

(١) سنده قوي، وقد ضعفه الشيخ شعيب حفظه الله في السير (١-١٥٦) بل جعله واهيًا ومتنه منكرًا، ولعله اعتمد على قول الهيثمي: «ولم أعرفهما»، يقصد شيخ الطبراني راوي الحديث ووالد شيخه، لكن نظرة سريعة على التقريب والتهذيب تغني، فشيخه عبدالعزيز بن عمر بن مقلاص ثقة فاضل، ملازم لحلقة أبيه الثقة، ووالده كان يدارس العلماء ومن تلاميذه: أبوحاتم وأبوزرعة والعقيلي. قال أبوحاتم: صدوق (٥-٣٩١).

في هذا المشهد الخلاب، الكل يشهد لعثمان بن مظعون بالصلاح في دنياه، لكن النبي ﷺ أوقف اجتياح العواطف إلى عالم ليس عالمها، هذا الاجتياح هو الآفة التي أصيب بها القساوسة والحاخامات والمعممون، حتى صاروا يحكمون على الناس بالجنة والنار، بل ويبيعونهم بيوتًا في الجنة، ويسلمونهم صكوكًا ومفاتيح بذلك مقابل مبالغ مالية، أو معارك طائفية.

ذات يوم تنافس كرم الأنصار على إخوتهم المهاجرين، الكل يريد أن يفوز بأخ له من المهاجرين يشاطره بيته وماله، ولم ينتهِ ذلك النزاع الآسر إلّا بالقرعة، وعندما وصل دور عثمان بن مظعون، جعلته القرعة من نصيب بيت زوج أم العلاء بنت الحارث الأنصارية رضي الله عنها، ولما مرض عثمان مرض الموت كانت أم العلاء تمرضه، فشهدت من عبادته وتقواه ما جعلها تشهد له عند رسول الله ﷺ بشيء أثاره.

تقول رضي الله عنها: «إن عثمان طار لهم في السكنى حين قرعت الأنصار على سكنى المهاجرين، فاشتكى عثمان عندنا، فمرضته حتى توفي، وجعلناه في أثوابه، فدخل علينا النبي ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك قد أكرمك الله.

فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **وما يدريك أن الله أكرمه؟** قلت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فمن؟

قال: **أما هو، فقد جاءه والله اليقين، والله إني لأرجو له الخير، وما أدري، والله، وأنا رسول الله ما يفعل بي.**

قالت أم العلاء: فوالله لا أزكي بعده أحدًا. فأحزنني ذلك، فنمت، فأريت لعثمان بن مظعون عينًا تجري، فجئت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبرته، فقال: **ذلك عمله**»، لكن قبل ذلك لا أحد يدري عن مصيره، وهل هناك فوق قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو سيد الأنبياء والأولياء: «**وما أدري والله وأنا رسول الله ما يفعل بي**».

إذًا، فلا شأن للولي بتصنيف الناس في الدنيا، ولا بفرزهم بعد الموت، بل وحتى في مدح المسلم لأخيه وهو حي، يأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدم الاندفاع، ففي أحد الأيام: «أثنى رجل على رجلٍ عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: **ويلك، قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك**.. مرارًا، ثم قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلانًا والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه**»[1].

(١) رواه البخاري (رقم٢٦٦٢) ومسلم (رقم٣٠٠٠).

الولي الحقيقي لا يطلق أحكامًا على الآخرين، لا يوقع على صكوك الغفران، ولا يقدم نفسه مسطرة للغير يقيسهم بها، لا يدنيهم من الله، أو يبعدهم بحسب مسطرته.

الولي عند نفسه أقل من ذلك؛ لأنه دائمًا يقيس الأشخاص والأشياء بعظمة خالقهم، لا بتعداد مزاياهم الظاهرة.

الولي الحقيقي يرنو إلى السماء شكرًا وامتنانًا وحبًّا وشوقًا، أما المغرور، فكلما قام بعبادة تأمل من هم أقل منه، يحصي الأرقام والمسافات التي تجاوزهم بها.

الفرق بين الاثنين: أن الأول مسكون بالسماء، مشغول بالله حبًّا وشوقًا، واعترافًا وامتنانًا وإجلالًا، بينما الآخر منشغل بالناس وعيوب الناس تقييمًا وتصنيفًا وفرزًا.

الأول يزداد حمدًا وحبًّا وحبورًا وتواضعًا كلما أدى عبادة، والآخر يزداد عجبًا وغرورًا وتعاليًا كلما قام بواجب أو سنة.

الأول يرف بين الملائكة، يهوى عالمًا نورانيًّا لا حدود له، والآخر يلهث على الثرى خلف أقدام البشر، يتتبع خطواتهم ليحصي زلاتهم، ويتشفى بانكساراتهم.

ذات يوم دخل رجل مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قادمًا من قلب نجد، من اليمامة، وكان الصحابي أبوهريرة في المسجد، فلمحه، وعرف بلاده، فهتف به، ناداه ليسكب له من عطور محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النورانية قائلًا: «يا يمامي، تعالَ».

استغرب ضمضم اليمامي هذا النداء، فتهادى نحو المنادي، وما إن اقترب منه، ووقف أمامه حتى قال له أبوهريرة: «لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك أبدًا، ولا يدخلك الجنة أبدًا».

استغرب ضمضم، فتساءل عن هوية هذا الناصح؟ قائلًا: «ومن أنت، يرحمك الله؟ قال: أبوهريرة».

ازداد استغراب اليمامي من هذا الطلب، ولا سيما هذه الكلمة دارجة على الألسن، فقال لأبي هريرة: «فإن هذه الكلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب، أو لزوجته، أو لخادمه؟».

حينها كشف له صاحب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطورتها، فقال: «**فإني سمعت رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يقول: إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين، أحدهما مجتهد في العبادة، والآخر كأنه يقول: مذنب، فجعل يقول: أقصر، أقصر عما أنت فيه. فيقول: خلني وربي، حتى وجده يومًا على ذنب استعظمه، فقال:**

أقصر، فقال: خلني وربي، أبعثت علي رقيبًا؟ قال: والله لا يغفر الله لك أبدًا، ولا يدخلك الجنة أبدًا. فبعث الله ملكًا، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عنده، فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي؟ قال: لا، يا رب. قال سبحانه: اذهبوا به إلى النار».

حينها نظر أبوهريرة لليمامي، وقال: «والذي نفسي بيده، لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[1].

كان ذلك الرجل العابد منشغلًا بغيره، محدقًا بمعاصي رفيقه التي أقلقته، لدرجة تهور فيها فجعل من نفسه مقياسًا لرحمة الله، بل جعل من نفسه راسمًا لحدود رحمة الله، فقال: «**والله لا يغفر الله لفلان**».

هنا قال الله سبحانه: «**من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان؟، فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك**»[2]. التزام المرء بالعبادات، وتجنبه للذنوب لا يعني أن ينسى نفسه وحجمه أمام الجبار سبحانه، عندما ينسى العابد نفسه يدمرها، يمنح لنفسه ما ليس لها، عندها تتلاشى ولايته.

---

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (٩٠٠) أخبرنا عكرمة بن عمار قال: أخبرنا ضمضم بن جوس. وضمضم تابعي ثقة، وعكرمة حسن الحديث.

(٢) رواه مسلم (٢٦٢١).

الشيطان نسي نفسه إزاء الله، ورط نفسه في معضلة التصنيف وإشكالية المقارنة، نسي ما هو ومن هو أمام الله، أشغل نفسه بتتبع آدم، تأمل آدم، ثم تأمل نفسه، فوجد مسافة لصالحه، فاجتاحه الغرور، وأعماه الكبر وهو يقارن مخلوقًا بمخلوق، انشغل عن تأمل كرم الخالق العظيم وقدرته وإرادته، خالقه وخالق آدم، تناسى أن يشكر الله على ما منحه من ميزات لم يمنحها لآدم، وحدق حسده بما مع آدم، ثم تهور بجعل نفسه مقياسًا لآدم.

هنا لم يعد لإبليس مكان بين الملائكة، التي تدرك ما تعني كلمة الله الخالق الجبار سبحانه، فقد امتلأ بالحقد والحسد والغرور، امتلأ بهذه العاهات التي دمرت عالمنا، وصنعت كوارثه وحروبه.

قد يمارس الإقصاء وإطلاق الأحكام حاكم أو فقيه أو قاضٍ؛ لأنهم يتعاملون مع الأنظمة، مع الحدود والقوانين، أما الولي فلا يطلق أحكامًا، الروحاني لا يتعامل مع حدود أو قوانين، أو مع عالم من النظم، الروحاني يحلق في عالم خارج العالم، يتجاوز الأرقام والحدود، تاركًا أمر الخلق للخالق، محلقًا في عالم خارج الرصد، لذا فهو لا يستطيع أن يقصي أحدًا عن عالمه؛ لأنه لا يستطيع وصف هذا العالم ابتداء، ولا تبيُّن معارجه أو تبيينها.

الروحاني حين يرتقي ينشغل بلذة الرقي، ينسى الخلق والانشغال بالخلق، وتطاحن الخلق وتنافسهم، ينسى أبوابهم وأرصدتهم ومناصبهم، وتنشغل روحه بمحبوبها وإلهها سبحانه حبًّا وشوقًا وعرفانًا وخوفًا ورجاء، لذا فالولي حين يمارس الإقصاء لا يكون وليًّا، يكون خارج عالم الولاية، هبط من سماواتها، واستقر في عالم الأرض المحدد والمحدود، أصبح مكبلًا بالنظم والقوانين، أصبح يتكلم عن عالم لا علاقة له بالولاية ولا بالروحانية.

المأساة هي أن يقوم الولي بتأسيس مذهب أو جماعة تحت لافتة الولاية، أو الروحانية، أو التصوف؛ لأن المذهب أو المؤسسة أو الجماعة عبارة عن شبكة أنظمة لا أطياف مشاعر، هي لوائح وقوانين لا حالات، هي مادة لا روح.

لا وجود حقيقي لمؤسسة روحية أو جماعة صوفية نقية، ومن يدعي وجودها يخدع نفسه قبل غيره، يمارس كهنوتًا محضًا؛ لأن الأولياء في هذا الكهنوت مجرد أزياء، أشكال، حاخامات، أو قساوسة، أو آيات معممين، لا علاقة لهم بالقرب من الله بقدر قربهم من جيوب عباد الله، هم عشاق سلطة متيمون بالأمر والنهي، مهوسون بالتفاف الناس حولهم، لذا فهم قوالب لا قلوب، جثامين لا أرواح.

شاهدت تقريرًا أعدته قناة الجزيرة عن أوضاع المسلمين في بورما، ومعاناتهم من كهنة البوذيين، شاهدت جيشًا من الكهنة يهتفون كالعسكر، يهددون الأقلية المسلمة، وتألمت حين استمعت لنساء احمرت أعينهن من البكاء وهن يروين لمراسلة القناة قصص اغتصابهن وخطف بناتهن الجميلات، وحرق بيوتهن وقتل أزواجهن، بعضهن تعاقب عليهن البوذيون حتى أغمي عليهن، فلم تجد بدًّا من الفرار نحو الغابة هي وابنتها وحيدتين.

البوذية الوثنية تدعي البحث عن التنوير والنرفانا، لكنها ترتكس في أخلاق اللصوص وقطاع الطرق بمباركة الغرب الذي يمنح رئيسة البلاد البوذية جائزة (نوبل) للسلام، التي لم تتحدث يومًا بكلمة تنصف فيها بنات جنسها وشعبها من المسلمات؛ لأن البوذية لم تخرج يومًا عن هوى البشر وأجساد البشر وشهوات البشر وأطماع البشر، لذا فحين ترتكب الجرائم ترتكبها بأسلوب أحط البشر؛ لأنها مؤسسة تدعي الروحانية، تدعي أنها النقاء، لذا فكل غريب عنها يلوثها، لذا فلا بد من محوه، وقد أفصحت كلمات كبير الكهنة عن حجم الغل الذي تغطيه تلك الأردية والأزر البرتقالية التي تبدو رمزًا للتواضع، كلماته كشفت كمية الكراهية التي تحتويها تلك الرؤوس الحليقة.

المؤسسات الروحية إيديلوجيات تستغل اسم الروح، ولندرك ذلك علينا رصد سلوك تلك المؤسسات حين تصل إلى كراسي السلطة.

تلك المؤسسات (الروحية) لا علاقة لها بالرقي في أنوار السماء، بل بالانغماس في عتمة الطين، هي نقيضة للشفافية، والمؤسسة الصوفية اليوم ليست استثناء، فقد أصابها ما أصاب الذين قبلها، هي منشغلة بمظاهر نائية عن أحوال الأولياء الحقيقيين، الذين قد لا يعرفهم أحد، بل لا يأبه بهم أحد، ولا يأبهون إن لم يُعرفوا، الأولياء الذين لا يضرهم تجاهل الناس ما داموا في معية الله سبحانه، معية قال عنها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رب أشعث، مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**»[1].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره. ألا أخبركم بأهل النار: كل عتل جواظ مستكبر**»[2].

الأولياء في نظر عامة الناس: مساكين بلا جاه، ليسوا وجهاء،

---

(١) رواه مسلم (رقم٢٦٢٢).

(٢) رواه البخاري (رقم٤٩١٨) ومسلم (رقم٢٨٥٣).

ووجودهم بين الناس غير لافت، ووزنهم على الأرض لا يؤبه له، وليس لهم أتباع أو مريدون، لكن لهم في السماء أوزان لا يدركها البشر، بل لا يدركها حتى بعض العباد.

أبوذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عابد زاهد وقع ذات يوم في التصنيف، عيَّر أخاه المسلم بأمه السوداء، في لحظة غضب غيبت الولاية، فماذا قال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو من أوائل الناس اعتناقًا للإسلام وجهرًا به؟ ماذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي ذر حين وجه كلمات عنصرية لا تليق بولي.

قال له: «**يا أبا ذر، أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية**»[1].

وها هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكشف للزاهد أبي ذر هوية أحد الأولياء، ووزنه في السماء، في قصة يحكيها أبوذر بنفسه، فيقول: «بينما أنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد إذ قال لي: انظر أرفع رجل في المسجد في عينيك.

فنظرت، فإذا رجل في حلة جالس يحدث أقوامًا، قلت: هذا. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **انظر أوضع رجل في المسجد.**

---

(١) رواه البخاري (رقم٣٠) ومسلم (رقم١٦٦١).

فنظرت فإذا رويجل في ثوب خلق. قلت: هذا. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لهذا خير عند الله يوم القيامة من قراب الأرض من هذا»**[1].

صدم أبوذر وهو يكتشف عجز مسطرته عن قياس الولاية، عجزه عن تحديد الأولياء، لذا عاش أبوذر حالة من التواضع، حالة من التماهي بالضعفاء حتى رآه أحدهم يلبس حلة أنيقة، ويلبس خادمه حلة لا تقل عنها، فقال: «رأيت أبا ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعليه حلة، وعلى غلامه حلة، فسألناه عن ذلك؟

فقال: إني ساببت رجلًا، فشكاني إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أعيرته بأمه»**، ثم قال: **«إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم»**[2].

الولاية تواضع لا كبر فيه، صفاء ووضوح لا غش ولا حسد ولا خداع ولا احتيال فيه، فقد عاش في المدينة شاب أجهد بدنه بالصيام حتى نحل، وأمضى أيامه بالصلاة وقراءة القرآن،

(١) رواه الحارث. الزوائد (١١٠٢) حدثنا معاوية بن عمرو، ثنا زائدة عن الأعمش، حدثني سليمان بن مسهر عن خرشة بن الحر عن أبي ذر وهو على شرط مسلم (١٠٩).

(٢) رواه البخاري (رقم٢٥٤٥) ومسلم (رقم١٦٦١).

حتى بلغ من العبادة مسافات لم يقطعها غيره، حيث كان يصوم كل يوم، ويقرأ القرآن كل يوم، ومن يطيق ذلك؟ إنه أمر لم يفعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

تأمله والده عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فرقَّ لحاله، وانطلق إلى إحدى الأسر الكريمة، فخطب له فتاة جميلة وصالحة؛ عله ينشغل بجمالها قليلاً، فيستعيد نضارة الشباب.

وافقت الأسرة، ووافقت الفتاة، وزُفَّت إلى عريسها الراهب، أمضت معه أيامًا وأسابيع، وبعدها توجه عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعروس ابنه يسألها عن حياتها الجديدة مع عريسها الشاب؟ فقال: «كيف وجدت بعلك؟»[1].

فإذ بالفتى الراهب في عالم والفتاة في عالم آخر، صدمته الفتاة بإجابة تشير إلى فتى ليس كالبشر، فقالت: «خير الرجال لم يفتش لنا كنفًا، ولم يعرف لنا فراشًا».

شعر عمرو بالإحراج، فتوجه لابنه الناحل، وأقبل عليه يلومه، ويقول: «أنكحتك امرأة من قريش ذات حسب، فعضلتها، وفعلت،

---

(١) رواه البخاري (رقم٥٠٥٢) ومسلم (رقم١١٥٩) وأحمد (رقم٦٤٧٧) واللفظ له، وما بين الأقواس تتمته.

وفعلت؟»، لكن عتاب عمرو وكلماته لم تكسر رهبانية الفتى، أو تحد منها، ظل كما كان، فأدرك والده عمرو أن ليس لها سوى الله ثم رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتوجه لنبيه يبثه الشكوى.

أنصت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم استدعى الفتى، ولما حضر ابتسم في وجهه، وقال: «**أتصوم النهار؟** قال: نعم. قال: وتقوم الليل؟ قال: نعم.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأمسّ النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني.. اِقرأ القرآن في كل شهر.**

قال الفتى: إني أجدني أقوى من ذلك. قال: **فاقرأه في كل عشرة أيام.** قال: إني أجدني أقوى من ذلك. قال: **فاقرأه في كل ثلاث.** ثم قال: **صم في كل شهر ثلاثة أيام**» فقال الفتى الراهب: «إني أقوى من ذلك. فلم يزل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرفعه حتى قال: **صم يومًا، وأفطر يومًا، فإنه أفضل الصيام، وهو صيام أخي داود**».

ثم أخبره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لكل عابد جديد حماسًا يسمى شرة، ثم يعقبه فتور، وهذا الفتور يرسو به على سنة، أو يهوي به إلى قاع البدعة. قال له: «**فمن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك**»[1].

(١) رواه البخاري ٥٠٥٢ وأحمد ٦٤٧٧ واللفظ له، وما بين الأقواس السابقة منه.

عـاد الفتى لسـنة نبيـه ﷺ واعتداله، لكـنّ أمرًا حدث جعل روحه تتوق للرهبانية من جديد، وذلك حين كان الفتى جالسًـا مـع نبيـه يومًا في المسـجد، وفجـأة تكلم ﷺ فحـدق الجميع بالبـاب. قـال لهـم ﷺ: «يطلـع عليكـم الآن رجـل مـن أهـل الجنـة»[1].

شخصت الأبصار، وخفقت القلوب تتوقع رجلًا من السابقين، فـإذ برجـل من الأنصـار يدخل، رجل غير مشـهور، وشـأنه لا يلفت الأنظار، قد ابتل وجهه ويداه بالماء، ولحيته تتلألأ، تتقاطر نظافة.

تهادى الرجل وهو يعلق نعاله بيده اليسرى حتى جلس والقلوب تخفـق حولـه غبطـة، وفي اليـوم الثـاني نظـر ﷺ إلـى بـاب المسـجد، فقـال: «**يطلـع عليكم الآن رجـل مـن أهـل الجنـة**»، فـإذ بالرجل نفسـه يدخل وسـط نظرات الدهشة، وفي اليوم الثالث تكرر الأمر نفسه.

طـار قلـب الفتى العابد عبد الله بن عمرو وهو يرى رجلًا ليـس مـن العبـاد أو العلمـاء، يُبشَّـر بالجنـة ثلاث مـرات متتاليـات، حلق

(١) سـنده صحيح رواه معمر في جامعه ٢٠٥٥٩ عن الزهري، أخبرني أنس، ومن طريقه أحمد ١٢٦٩٧ واللفظ له، وهذا سند على شرط الشيخين. معمر والزهري إماما ثقتان، وما بين الأقواس التالية تتمة له.

به شوق للنعيم، شوق لا يقاوم، فهو ما ختم القرآن كل يوم، ولا صام كل يوم إلا طلبًا للجنة، أيقن الفتى أن لهذا الولي الأنصاري عبادة سرية يخفيها بعيدًا عن أعين الناس، ولن يقر له قرار حتى يكتشفها، ويبحر في عوالمها.

أقيمت الصلاة، فنهض الجميع خلف نبيهم ﷺ، وبعد الصلاة خرج الرجل من المسجد، وعيون الفتى تلاحقه، ثم نهض، وانطلق خلفه حتى أوقفه، ولما أوقفه سلم عليه، ثم جعله الذهول يفتعل أمرًا لم يحدث فقال: «إني لاحيت أبي، فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت؟».

رحب الكرم الأنصاري بالفتى، ولما خيَّم الليل قدم الرجل فراشًا له، ثم أوى لفراشه، أما الفتى فشرع يصلي، ويقرأ كعادته وسط غطيط صاحب المنزل، الذي كلما انتبه من نومه، أو تقلب على فراشه ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وكبر، ظل الأمر على ذلك حتى لاح الفجر، فارتفع صوت بلال معلنًا نهاية الليلة الأولى، فاستيقظ صاحب المنزل، وتوضأ، وخرج مع الفتى لصلاة الفجر.

صام الفتى كعادته، لكن الرجل لم يصم، وتكرر المشهد في اليوم الثاني والثالث والفتى لا يزال في عالم من الحيرة، فهو لم يرَ

في المبشَّر بالجنة قيامًا أو صيامًا، لكنه لم يسمعه يقول في حديثه إلا خيرًا، لا غيبة، لا نميمة، تحير، وكاد يحتقر عمل الرجل، ثم شكره على ضيافته، وقبل أن يخرج من منزله اعترف له، فقال: «يا عبدالله، إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار: **يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فأقتدي به، فلم أرَك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله؟».

امتلأ الرجل بالامتنان لله، لم يدَّعِ، لم يتصنع، لم يكذب، اكتفى بقوله: «ما هو إلا ما رأيت».

سلم الفتى أمره لله، وودع الرجل، ومشى خطوات نحو الباب، وفجأة أوقفته كلمتان بحجم الدنيا، ناداه صاحب الجنة، فقال: «ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًّا، ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه».

أطرق الفتى، لكن قلبه ارتجف، سافرت به الكلمات، وأعادته، فقال: «هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق»[1] ثم خرج، وقد اكتشف طريقًا آخر للولاية لا صيام فيه ولا قيام، لكنه قد يكون

---

(١) سنده صحيح رواه معمر في جامعه (رقم٢٠٥٥٩) وما بين الأقواس الماضية منه.

أصعب من القيام والصيام بالنسبة إلى بعض الناس، صفاء النفس ونظافة الصدر من الغل والحسد والكبر والاحتقار أحد المعارج الروحانية، لا تكلف المرء أدنى حركة، لا تكلفه إنفاق أي قرش! إنها من أعمال القلوب التي تجعله يتقلب في عوالم الولاية.

هذا القلب الأبيض النقي من الغش والحسد والكبر أنسب مكان للولاية، فولاية الله لا يمكن أن تسكن قلبًا مشوهًا بالحقد والحسد والكبر، ولاية الله جمال لا يجاور قبحًا، والقلب المصاب بتلك التشوهات لا يمكن أن يكون قلب ولي.

أما ذلك الأنصاري غير المشهور، الذي لا يشار له بالبنان، فلا يضيره إن لم يعرف العالم اسمه، ما دام الله يحبه، ويوحي لنبيه ليخبر أهل الأرض أنه من أهل الجنة، لا يضير هذا الولي ألا يكون مشهورًا ومقدمًا ما دام في معية الله، يتلذذ بمناجاته أشد من تلذذ الناس بمجالسة الملوك والوجهاء والأغنياء، لا يضيره ما دام الله يذكره في نفسه، ويحميه، ويبر قسمه، فالله ملك الملوك ومانح الأغنياء.

لا يضيره ألا يهتم به أحد ما دام الله يحبه.

الحب الخفقة التي ترف بصاحبها حتى تلحقه بأحبابه.

حب الله النبضة التي تتدفق كالنور في الشرايين، فإذا المحب في عوالم من نور.

حب الله الذي لا يعرفه إلا من ذاقه، وسكن قلبه، حب الله ورسوله الذي أخرج رجلًا غير معروف من بيته، أخرجه قلبه المسكون بشوق جارف لأحبابه، فراح يبحث عنهم خلال دروب الحب، مشى حتى وقف أمام نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم سأله سؤال الملهوفين، فقال: «متى الساعة؟ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **وماذا أعددت لها؟** قال: لا شيء... إلا أني أحب الله ورسوله».

عندها حلق المحب في شلالات النور، فإذا به مع الله ورسوله، بشره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**أنت مع من أحببت**».

طارت قلوب الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ تريد أن تسبقه، اجتاحهم الشوق وهم يرون الحب يحلق إلى تلك الذرى النورانية، حتى قال الطفل أنس: «فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أنت مع من أحببت**» ثم عبر أنس عن حبه، فقال: «فأنا أحب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم»[١].

ما أجمل الحب فهو يجمع، لا يفرق، لا يقصي، لا يحرض، لا يستعدي.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٨٨) ومسلم (رقم٢٦٣٩).

Follow Us
obeikn reader obeikanstores
obeikanpub

كتبنا الصوتية
Kitab Sawti
www.kitabsawti.com
دار ضاد للنشر الإلكتروني
Dhad Audio Publishing
WWW.DHAD.SA

كتبنا الإلكترونية
Google Play
amazonkindle

لخدمات البيع والتوصيل
نون noon
سوق
إحدى شركات amazon
وادي wadi

على امتداد التاريخ حاول البشر بلوغ هذه الحالة علهم يلامسون تخومها، وما إن يشعروا باقتراب تلك التخوم حتى تبدأ رحلة التيه، يتحيرون، وتحيرهم تلك الشرفات الضبابية الأخاذة، يتخبطون في وصفها ومحاولة تعريفها وتحليلها.

حيرة عانتها الصوفية في عالم التدين، وعانتها البوذية في عالم الوثنية، وعانتها السوريالية في عالم الحداثة المادية اللادينية.

كل هذه التوجهات تتوهم أنها في الطريق إلى تجاوز تلك الحدود، واختراق تلك العتمة، وملامسة تلك العتبات التي تصل عالم المادة بعالم الروح عند الصوفية، أو ما بعد النرفانا عند البوذية، أو الخط الذي يفصل عالم الوعي عن عالم اللاوعي عند السوريالية.

الكل مشتاق، متحرق إلى معرفة ما بعد عالم الأرقام والأحجام، الكل متلهف لبلوغ النقطة التي تنمحي فيها الفواصل في هذا الكون، غياب الفواصل بين الجسد والروح، والغيب والشهادة

للنشر العبيكان
Obeikan Publishing
نلهم المعرفة
Inspiring Knowledge
Obeikan Reader
@ObeikanPub
ISBN: 9786035091633
9 786035 091633